ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

Techniques of Novel Narration: A Study of The Novel *Sada Makhoul* by Ibrahim Hasan Nasser

Assist. Prof. Jabir Hasan Harim, PHD.

University of Tikrit / College of Basic Education/Shirqat.

* *Corresponding author: E-mail* :
Jabir.hassan@tu.edu.iq

07739025290

***Keywords*:**
Techniques
Novel
Narration
Sada Makhoul

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 4 July. 2021
Accepted 22 June 2022
Available online 25 June 2022
E-mail
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

A B S T R A C T

The research seeks for approaching the elements of the narrative expressions in the novel "Sadda Makhool" written by Ibrahim Hassen Nasser, which can be specified by three techniques: narration, description and dialogue. Approach has been made to the narration and its two branches (the subjective and objective narration), the description and its two forms (the description of characters and description of places) and the dialogue with its two types (the external dialogue and internal one(monologue)). The artistic and aesthetic values of this novel have been shown up and the important role which it plays in programming the narrative manners in novel has been arisen.

© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.6.2022.08

تقانات السرد الروائي قراءة في رواية صدى مكحول للكاتب :ابراهيم حسن ناصر

م.د. جابر حسن هرم/ جامعة تكريت/كلية التربية الأساسية –الشرقاط

الخلاصة:

سعى البحث الى مقاربة تقانات السرد في رواية صدى مكحول للكاتب ابراهيم حسن ناصر ، والتي تحدد بثلاث تقانات هي :السرد، الوصف، الحوار. وقد تم مقاربة السرد بنمطيه الذاتي والموضوعي. اذ ان السرد الذاتي ينطلق من حساسية الذات الساردة ، فيستخدم السارد ضمير المتكلم وهو ما اتاح للشخصية ان تواجه القارئ مباشرة، فتتحدث اليه عن افعالها وارائها من دون وصاية او توجيه من الشخصيات الأخر

وفي السرد الموضوعي يرتبط السرد بالراوي الذي لا يكون في هذا النمط احدى الشخصيات المشاركة في صنع الاحداث بل يكون عاكسا ومخبرا عن الاحداث والافعال والافكار والمشاعر التي تصدر من شخصيات الرواية ، فالراوي في هذا النمط يمتلك حرية التنقل وسرد الاخبار واعطاء المعلومات عن الاحداث وتصوير بواطن الشخصيات.

اما في تقانة الوصف التي تعمل على تصوير الاشياء والأماكن والهيئات وابراز مظاهرها وهيئاتها ، فقد ركز الكاتب في هذا التقانة على وصف الشخصيات ووصف الأمكنة ، ووصف الشخصيات عند الكاتب يقوم على تحديد هيئتها، وملامحها الخارجية وافعالها وسلوكها من دون التوغل الى اعماق الشخصية .

فيما جاء وصف المكان لتجسيد الامكنة في الرواية وتحديد ابعادها وتشخيص مظاهرها وانواعها ،طبيعتها وسماتها المختلفة ،المدني / جبهة القتال ،المغلق/ المفتوح.

اما تقانة الحوار فهي وسيلة السرد الأخيرة التي لجأ اليها الكاتب لسرد احداث وقعت بين شخصين او اكثر وهو ما جاء على نوعين ، حوار خارجي منطوق من شخصية موجه الى شخصية او اكثر يكشف اراءها ومواقفها المختلفة . والنوع الاخر كان حوارا داخليا موجهاً من الشخصية الى ذاتها وهو حديث غير منطوق ولا مستمع له ، وهو يسبر داخل الشخصية ويتعرف القارئ على ما يجول بداخلها من احاسيس وافكار ويتحدث عن موقفها من العالم المحيط.

الكلمة المفتاحية: تقانات السرد في رواية صدى مكحول

المدخل:

تنهض رواية صدى مكحول للكاتب ابراهيم حسن ناصر على حدث يبدأ من نقطة معينة ثم يتشظى الى مجموعة احداث تتوزع على خط زمني متداخل، تلتقي بعدها في نقطة معينة فتأخذ الأحداث مسارا تصاعديا حتى النهاية. تتمحور هذه الأحداث على ثلاث شخصيات رئيسة هي: مختار القرية عطية السلمان ، مخلف النايف ، نمر الفلسطيني . ينطلق الحاضر السردي للأحداث من المختار وتسلطه على ابناء القرية، فهو يحمل كل قيم الاقطاع وتراكمات الماضي ، فكل شيء في القرية مرهون بأمره وموافقته.. زواج ، طلاق ، شراء ، بيع...حتى بيع المحاصيل الزراعية يجب ان تجمع في بيته لتنقل بعدها مجتمعة للبيع في السوق . تسلطُ المختار قادهُ لطلب يد (حسنه) لابنه احمد فهو لا يرد له طلب ، وحسنه حبيبة مخلف النايف المقاتل في الجبهة وسبق ان تم بينهما اتفاق سري وعهد على الزواج ،يُكشف ذلك من خلال استرجاع لمخلف النايف اثناء وجوده في الجبهة ، إذ ان العلاقة بينهما ترجع الى مدة ما قبل نقطة انطلاق الحدث الروائي.

زواج ابن المختار من حسنة يقود الأحداث الى منعطفات خطيرة ، اذ تهرب حسنه ليلة عرسها الى النهر وتغرق نفسها ،يعود بعدها مخلف النايف من الجبهة بعد تكريمه بإجازة بسبب تنفيذه دورية على العدو ، وفي نيته الزواج من حسنه ليصطدم بالواقع ، وحال معرفته بمصير حسنه يهرب من القرية ليستقر

بعدها في قلعة آشور . في القلعة وبعد وقفة طويلة عند بابها وهو يستمع لخطاب موجه لآشور فيه طلب استنهاض الهمة والقوة والعزم ، يخرج صاحب الخطاب وهو نمر الفلسطيني ويلتقي بمخلف النايف فيتعارفان ويتفقان على العيش سوية في القلعة . بعدها تسند رواية الاحداث الى نمر الفلسطيني ، ليروي لمخلف النايف احداثا وقصصا وانتهاكات تعرض لها هو واكثر الفلسطينيين من قبل الصهاينة ، اضطر في النهاية الى الهرب من فلسطين الى سوريا ومن ثم الى العراق ، وكيف انه عبر الحدود وقطع المسافات بواسطة قوافل البدو ، وما هي الحيل التي استخدمها معهم. فتتنوع الاحداث التي واجهها نمر الفلسطيني بدءاً في فلسطين ومن ثم في طريقه الى العراق عبر قوافل البدو . يستقر مخلف ونمر في القلعة وينطلقان في حياة جديدة ، ويبدآن اول اعمالها بالبحث عن القوت اليومي لهما ، فيذهبان الى الغابة المجاورة لهما ويضطران الى صيد خنزير وشوي لحمه وأكله.

يتشظى الحدث في رواية صدى مكحول ، وتتعدد الشخصيات ، وتتنوع الامكنة ،ويتداخل الزمن، وهي في النهاية تترابط هذه العناصر ترابطا وثيقا بشبكة من العلاقات المبنية على اسس وقوانين و انظمة داخلية وخارجية نسجها الخيال التأليفي للكاتب . ان عملية البحث في شبكة العلاقات القائمة بين العناصر الروائية تكشف ان النص الروائي لا يمكن ان يقوم الا بوجود تلك العلاقات ، ومن ثم يمكن القول انه لابد من تقانات لقيام هذه العلاقات ،والذي يتفق على تحديدها الدارسون وهي :

1. السرد.
2. **الوصف.**
3. **الحوار**

1- السرد:

عرفه النقاد بأنه ((ريقة القص الروائي))[1] ،او هو ((تداخل الحلق بعضها في بعض))[2].وعاينه آخرون بوصفه ((المتوالية من الاحداث ،أو بوصفه خطابا ينتجه سارد ،او بوصفه نتاجا اصطناعيا ينظمه قراؤه ويمنحونه معنى))[3].

ان النظريات السردية الحديثة التي مازالت مستمرة في أبحاثها وكشوفاتها السردية داخل مغامرتها النظرية استطاعت أن تثبت ((وجود ضربين من السرد، سرد شفاف وسرد كثيف، فحينما يختفي السرد ويتوارى الى أقصى حد لصالح الحكاية ،يظهر السرد الشفاف الذي يجعل الاحداث تسرد نفسها دون أن يشعر المتلقي بوجود الوسيط السردي ،أما حين يشير الراوي الى نفسه كثيرا بوصفه منتجا او مبتكرا للحكاية فان المتلقي لا يندمج مع الاحداث ولا تحقق واقعية الحكاية ،انما يتمزق الأيهام وتتكسر مقوماته، فالراوي يتدخل متحدثا عن نفسه وعن دوره مبديا ملاحظات حول كل شيء ،وهنا يظهر السرد الكثيف))[4]، فالسرد

الشفاف هوما يمكن أن نطلقه في تحديد أنماط السرد على (السرد الموضوعي)،اما الكثيف فيطلق على (السرد الذاتي).

تعتمد رواية صدى مكحول في سرد احداثها في الغالب الاعم على نمط السرد الموضوعي ، فيما شغل السرد الذاتي مساحة اقل نسبيا من سرد الاحداث الروائية ،وعلى العموم يمكن القول ان هذه الرواية اعتمدت النمطين ،الذاتي والموضوعي في سرد احداثها مع غلبة السرد الموضوعي .

أ. السرد الذاتي (رواية المتكلم):

تكون رواية هذا النمط من السرد مرتبطة بالذات (ذات الانسان) "ويقوم جوهرها على الغياب الطوعي للمؤلف المحيط بكل شيء عن روايته وعلى وجود (وجهة نظر)مقيدة عوضا عن ذلك "[5]. ففي السرد الذاتي تقل اهمية الراوي العليم .فلا نطلع على دواخل الشخصيات وخفاياها بوساطته ،انما "تتتبع الحكي من خلال عيني الراوي (او طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكل خبر : متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه" [6] ، وعادة في مثل هذا السرد يستخدم السارد ضمير المتكلم في سرد الرواية "فهو يعلق على الاحداث أو يقدم وجهة نظره، من زاوية ذاتية حول موقفه من العالم ومن الشخصيات الاخرى ومن بعض الاحداث "[7].

وفي هذا النوع من السرد يشعر القارئ بقربه من الشخصية اذ يدرك انها اكثر علما ومعرفة بإحساسها ومشاعرها .

يقول الراوي :((أنا آخر المشردين في الارض آخر ضمير حي في ضمائر العرب ..أنا الثورة ،أنا الشعلة الباقية ،أنا السلسلة التي لم تقطع ، أنا الهوية الشريفة المؤمنة ،أنا الزيتون والبرتقال...انا الديمقراطية التي لم تر النور، انا الحرية المذبوحة الف مرة ..انا النكبة الاولى ، والثانية...والعاشرة ،انا الفوضى، التنظيم.. أنا الخوف ،انا الشجاعة ..انا المرأة المتمردة ،والجندي الانتحاري ...انا الحلم الذي رأى النور ثم لم يختف رغم الظلام ..أنا من دموع اليتامى ،وعويل العذارى ،انا من ايلول، من تل الزعتر من خيام مزقتها الشمس واتلفتها الامطار ...انا الجائع العريان ...انا القوة والعنف انا كليب والزير ..أنا من ذكرني التوراة ،من عاداني التوراة . أنا مزعج ومرهب التوراة منذ زمن سحيق .أنا الذي ذكرني تليمودة اكثر من ذكر الله . أنا الكابوس المخيم على وجهه منذ العصور أن مرهب الحاخام ومحطم الهيكل وحائط المبكى... أنا الرمز ،المثال ، الواقع... انا الذي نزف دما بقدر بترول العرب المنساب الى الغرب .....))[8].

النص يوضح صفة السرد الغالبة عليه والاشارات النصية الدالة عليه كثيرة ،لاسيما وان الراوي (نمر)عاش واقعا مؤلما وعدوانا سافرا وغاشما كانت نتيجته تشرد شعب بأكمله وهو واحد من ذلك الشعب الا وهو الشعب الفلسطيني .فنمر يسرد احداثا وقعت له وواقعا عاشه بنفسه وعاينه بأم عينه ،فيصف لنا —

وهو عاش ورأى معاناة لم يشهد لها مثيل تاريخ الانسانية ـ شعوره وإحساسه وافكاره الطاغية ،وربما كان هذا الطغيان الاني من الامور المسلم بها في واقع الحرب المعيش كالواقع الفلسطيني ، ذلك ان من ابرز ملامح السرد في واقع الحرب هو هيمنة الذاتية الفاعلة على منطق السرد وفي ميدانه .السارد وهو نمر الفلسطيني الذي ضاقت به المعمورة في فلسطين، فاضطر الى الهجرة الى العراق بحثا عن مكان آمن فلجأ الى قلعة آشور الحصن الحصين ليستمد منها العزم والصبر والقوة والمهابة وهي تعبق بعبق الحضارة والرقي والتاريخ ، بوصفه مثالا للذاكرة الفلسطينية الحية وشاهدا على مأساة شعب بأكمله وهو يواجه الحقد والعداء والظلم الصهيوني .

لجوء نمر الفلسطيني الى قلعة آشور بعدما عبر الحدود وقطع الفيافي بلا جواز سفر ،ولم يكن يحمل معه أي مصروف مادي ولا حتى قوتاً ليومه . فهو لا يملك شيئا سوى الملابس التي يرتديها. لكنه يحمل في داخله ونفسه المجروحة اصرار شعب كبير وعزيمة لا حدود لها في استرجاع الحق المسلوب وتحقيق الهدف المرسوم رغم كل المعاناة . فنمر الذي اتخذ من نفسه شاهدا لمأساة شعب مضطهد، وفي نفس الوقت مطالب ومدافع وعازم على ايصال صورة الفجيعة بصوت مدوي الى جميع الاوساط العربية والعالمية والى ابعد نقطة ،وصل العراق والى قلعة آشور مع قوافل البدو الرحل وهو ينتقل من قافلة الى اخرى من دون ان يسلك طريقا واضحا أو يمر بنقطة تفتيش او مخفر حدودي.

في قلعة آشور شاءت الاقدار ان تجمع بينه (نمر الفلسطيني)المضطهد من قبل الصهاينة وبين مخلف النايف المضطهد هو الاخر من قبل الواقع والتقاليد بعد تزويج محبوبته بالإكراه الى ممدوح ابن المختار مما اضطرها الى اغراق نفسها في نهر دجلة .فحال معرفة مخلف النايف بالموضوع أثناء عودته بإجازة من المعارك مع ايران ،وبعد مفاتحة اهله بطلب يد حسنة لزواجه منها ،ثارت ثائرته ،وفقد وعيه وخرج من البيت بدون وعي متوجها الى النهر ليغرق نفسه هو الاخر ويلتحق بركب حبيبته ،فلم يجد نفسه الا وانه شق النهر واذا به في الضفة الاخرى في جوار القلعة– فلجأ اليها.

فالسارد (نمر الفلسطيني)شخصية مشاركة في احداث فلسطين عاش احداثها وعاصر ويلاتها ودمارها، وربما تعرض الى الكثير من المواقف التي حتمت عليه ان يسرد ما وقع له بنفسه وعلى نحو متصل بالحدث ومستجيب لضروراته ،فلو ان شخصية اخرى حاولت ان تسرد ما وقع لشخصية نمر لم تفلح في نقل هذه الاحاسيس بمثل هذا المستوى من الصدق والتصوير والعفوية ، وهي تعكس حساسية الرؤية الجمالية التي تتجلى في طبقات السرد وفضاءاته . واذا تقصينا مكامن الذاتية في هذا المقطع فانها تتجلى لنا بكل وضوح من خلال الضمير (أنا) الدال على المتكلم والذي تكرر بشكل ملفت للنظر وهو يحيل الى ذاتية نمر الفلسطيني المنفعلة الى حد الطغيان.

يقول الراوي : ((مشيت منكسا بندقيتي القديمة من اصل انكليزي ، وانا محزم بالعتاد وفي يدي شباك صيد.. راودني شعور غريب قاتل ،انا الثائر اتحول الى قاتل طير ؟! لا لن اكون ذلك ....أقسم بالقدس أن لا اصطاد النسور ،أن لا اطلق النار الا على اليهود واشباههم ..أرى نسورا محلقات في السماء لا تتحرك اجنحتها الا ببطء وهن محلقات على شكل دائري ،أراهن يهبطن للأرض كالصواريخ التي تقذفها أل اف14 الامريكية نحونا ،ولكنها لا تلبث أن ترتد نحو السماء قبل أن تصل للأرض ... هل تعلم الامريكيون أن يرموا شعبنا ومبانينا وخيامنا من حركات النسور تلك....؟لا ادري! فهم كل شيء جميل يحولونه الى مدمر وقاتل ...اتطلع للنسور محلقات في السماء ، جميلة الحركات .لا شيء سواها في السماء ،والشمس بدأت ترتفع في السماء....أسير نحو الطريق والاحجار الصغيرة تقذفها ارجلي .أنظر للنسور هادئة مطمئنة محلقة في سماء الصحراء لا شيء يعكر زهوها وجمالها ...اقذف بالشباك بعيدا ،اصل الطريق وفي يدي بندقيتي ،وحول جسدي عشرات من الطلقات النارية ،اجلس صاحبي لم يأت بعد...))[9].

ان شخصية نمر الفلسطيني هي الساردة، وهو يروي لمخلف النايف الذي لجأ لقلعة آشور بعدما هجر قريته الواقعة في الضفة الاخرى المقابلة للقلعة اثر عودته من الجبهة ومعرفته بإغراق حبيبته (حسنة) لنفسها في النهر بسب تزويجها بالإكراه من ابن المختار. فنمر الفلسطيني يكشف عن الطريق والآلية التي وصل بها الى القلعة قادما من فلسطين ،وكيف انتقل من فلسطين الى لبنان، و من لبنان الى دمشق ،ومن دمشق الى حلب ،وما هي الاحداث والظروف التي واجهته ،بعدما دفعته الحاجة الملحة أن يدعي نفسه لاحد رجال البدو الذي لقيه في موقف لسيارات الاجرة في حلب بأنه صياد نسور ماهر ليكسب ود وتعاطف البدوي وعسى بواسطته ينتقل الى عمق الصحراء ليتخذ من خلالها محطة انطلاق اخرى الى اماكن بعيدة. وفعلا نجح نمر في خطته، فما ان عرف البدوي ان نمرا صياد ويبغي الصحراء حتى التزم به ،واخذه معه الى بيته ،ولما وصلا البيت هيأ له مستلزمات الصيد كلها.

فنمر في حاضره السردي هو في طور سرد الاحداث التي وقعت له في بيت الرجل البدوي، بعد أخذه عدة الصيد من بندقية وشباك ...الخ، وتوجيهه الى المكان الذي يكثر فيه تواجد النسور في مكان من الصحراء. لتبدأ هناك نفس نمر بالتفكير للتخلص من ورطة ادعائه بمعرفة صيد النسور. ولاسيما هو الانسان الثائر المحتدم العزيمة والاصرار على مقاتلة العدو الغازي لفلسطين. أيتحول الى مقاتلة طير؟! ، فهو لم يترب على قتال الطيور العزل ولاسيما النسور رمز الحرية والكرامة والاباء .فهو انسان يبحث عن الحرية والكرامة ويناشد العيش الرغيد ولم تدفعه نفسه لأذية اي مخلوق يعيش بحرية وكرامة ولم يؤذ احدا، لينتهي به الامر في نهاية المطاف بإقناع نفسة وترك الصيد ،ليلتحق بركب قافلة اخرى مرت من قربه ،فيسير معها اياما عدة فيقطع الفيافي ويعبر الحدود حتى وصل القلعة.

فتستمر(أنا) نمر الفلسطيني في الهيمنة على السرد ،ذلك ان الهجرة والتنقل في الصحراء وما يدعيه للبدوي وما يصادفه من احداث في ضوء ذلك هي تجربة ذاتية، لذا تصبح الذات هي الاكثر قربا من هذه التطورات ،وبما ان الذات هي المعنية بذلك ،فان هذا يعني ان ضمير المتكلم هو الضمير المهيمن على منطقة السرد. ان احساس نمر بالعزم والاباء والاصرار على ايصال الصوت الفلسطيني المظلوم الى ابعد نقطة في ارجاء المعمورة. انما كان تأكيدا على الرغبة الصادقة بمواصلة الكفاح والجهاد حتى في خارج فلسطين، وايصال الصوت الفلسطيني الى ابعد نقطة ، وحتى ان يتم التحرير الكامل للأرض والوطن . فالأحداث التي واجهها نمر ذات معطى ذاتي ، انساني ، وسردها ذاتيا يستغور اعماق نمر من خلال ترك المجال له بالتعبير كيفما يشاء وبالطريقة التي يرغبها . وهو ما يكون مسارا سرديا قائما على تعبير الشخصية من ذاتها بلا وسائط.

ب – السرد الموضوعي:

في هذا النمط من السرد يكون الكاتب مطلعا على كل شيء ،حتى الافكار السرية للأبطال[10]،ومن هذا المنطلق فإن الراوي يمتلك حرية التنقل بين عناصر الرواية .فيعطي من المعلومات ما يريد اعطاءه ويحجب ما يريد حجبه عن المتلقي ،وتتمثل هذه الحالة ((أساسا في هيمنة دور الراوي العليم (او كلي العلم)الذي يعرف بكل خفايا شخصياته واسرارها))[11].ويعطي هذا الجانب من السرد حرية كبيرة للراوي في سرد الاخبار واعطاء المعلومات عن الاحداث ((ويخبرنا قصة من دون أن يشير الى اي تدخل شخصي في الاحداث ،ومن دون أن يكون له علاقة بها))[12] ،فالراوي يتولى الفعاليات جميعها داخل المتن الحكائي ولا يتقيد بأي عنصر من العناصر الروائية ، وكذلك يمتلك الراوي العليم حرية نقل تصرفات الشخصيات والتعليق عليها ونقلها الينا وقد يقوم بقدح أو مدح سلوك معين لاحد الشخوص.

وهذا النمط هو السائد في رواية صدى مكحول ،اذ يشكل النسبة الغالبة في سرد الاحداث ، ويعتمد الراوي الموضوعي الرؤيتين الداخلية والخارجية في متابعة شخصياته.

يقول الراوي :((يتقدم مخلف النايف ببطيء واصلا الاشجار وهو يحمل عدته المثلجة الثقيلة، يلف ذراعيه حول جذع احد الاشجار ،ينظر الى خلدون لا يبصر شيئا. تزداد الريح قوة لم تعد ريحا، صارت عاصفة جاءت بقوة منحدرة من اعلى الجبال تندفع وهي محملة باطنان الثلوج .يزداد الصفير ويزداد اهتزاز الاشجار ويزداد مخلف التصاقا بالشجرة مغمضا عينيه ممتدا مع ساقها كما يصلب المسيح . صامت لا يتكلم ،فالكلام للريح للعاصفة.... الثلوج تتبعثر في الارض المتعرجة، والجبال تفقد كثيراً من حمولتها الثلجية بفعل الريح ....ومخلف النايف متجمدة اطرافه من البرد . الملابس الكثيرة لا تحميه من الزخم الهائل من الثلج المدفوع بقوة الى المجهول. يجلس القرفصاء بجانب جذع الشجرة وذرات من الثلج تتساقط عليه وهي تتماوج

يشعر ان اطرافه تتقطع بفعل البرد. بدا حلقه يجف، وعيونه كساها الاحمرار .ودقات قلبه بدأت بالخفوت شيئا فشيئا ...كل شيء ثلجي هنا كل شيء قاسٍ ومخيف .لم يخفه الاعداء لم يرهبه الاعداء بل الطبيعة هذه المرة.))[13].

يكشف هذا النص عن نمط من انماط السرد الموضوعي الذي برز فيه صوت الراوي واضحا ومهيمنا في الوقت ذاته ، اذ ان الراوي يتخذ لنفسه موقعا يعلو فوق مستوى ادراك الشخصيتين (مخلف النايف ،وخلدون) ويعرف ما يعرفانه وما لا يعرفانه ،ويرى ما يريانه وما لا يريانه ،وهو المتحدث الرسمي باسمهما ،فلا يسمع القارئ الا صوته ، ولا يرى الاشياء الا من خلال وجهة نظره. فالراوي وهو مطلع على الحدث الروائي برمته يروي كل ما يحدث لمخلف النايف وزميله خلدون فهما مقاتلان في ساحة المعركة ،وقد كلفا بواجب تنفيذ كمين في ارض العدو وهي منطقة جبلية تقع امام وحدتهما العسكرية ، وفي اثناء ادائهما للواجب يواجهان عاصفة ثلجية قوية تنهك قواهما وتعيق كثيرا من حركتهما واداء مهامهما ، كما يفقدان الرؤية ، والقوة على الحركة والسير للعودة لوحدتهما العسكرية ،يلوذ مخلف النايف ببعض الاشجار فيحتمي بهن ، ويواصل خلدون المسير .يفقد احدهما الاخر ،لم يصمد خلدون امام قوة العاصفة ،يسقط ومن ثم يفارق الحياة .يعاود مخلف النايف مواصلة السير فيجد في طريقه رفيقه خلدون جثة هامدة وقد علاه الثلج لعدة اشبار . فحمل الجثة وركنها قرب مجموعة اشجار ليرسل مجموعة من رفاقه عند وصولهم لأخلائها. بعدها يتمكن مخلف النايف من الوصول الى وحدته العسكرية بعد خطورة وعناء كبيرين ،بعدما سجل في وحدته في عداد الضحايا.

عودة مخلف النايف سالما الى وحدته العسكرية تدخله في مواجهة سردية يلج من خلالها حدث الرواية الرئيس بدءا بتكريم وحدته له بإجازة زمنية يعود بها بعدها الى البيت ،في البيت يطلب من اهله مفاتحة اهل حسنه للزواج منها .يكشف في حينها ان حسنة اثناء غيابه في العسكرية زوجت جبرا من ممدوح ابن المختار ،وفي يوم العرس اغرقت نفسها بالنهر ،يثار مخلف النايف من الخبر يخرج من البيت ،والى النهر ،يعبر النهر لتستقر به الحال في النهاية في قلعة آشور ...الخ ، فيكون مخلف في النهاية احد الشخصيات المحورية الذي تدور حوله اكثر احداث الرواية ،وهذه الاحداث لا تعلن عن نفسها بل ان الراوي هو الذي يعلنها.

يقول الراوي: ((النار تتلاشى والجمر الاحمر يتلاهث من خلال الرماد كالنجوم البعيدة. وقطعة من لحم الخنزير متروكة قرب النار ... لقد أكلوا حتى التخمة .. قام مخلف ومشى متخطيا على الشاطئ ، واضعا يديه تحت نطاقه العسكري ،مدليا رأسه للأرض .. يسير بخطوات جنوبا مع النهر ثم يرجع الى نمر الذي يستمتع بمنظر الجمر المتلاهث وظهره للغابة السوداء ،يضرب مخلف الرمال الرطبة برجله تتطاير

ذرات الرمال ...يدندن بأغنية حزينة لا يعرف معناها ،واخر الكلمات يمضغها ...يكرر مشيه ذهابا وايابا ..يغني ،ينظر للنهر بأسى ،باحتقار ..تمنى ان لا يكون قد قذف الخنازير بالنهر . ((ردد مع نفسه)) أيكون النهر مأوى للأحباب والخنازير؟. اتلاحق الخنازير جسد (حسنه)؟ أتأكلها الاسماك اتقطع ضفائرها الصخور..؟ يقف يمشي ويحمل حجرا ويرميه في النهر ..يفكر بالانتحار من جديد ..يريد الموت غرقا ..لكنه يكره الانتحار .يمقت الموت انتحارا ويستهزئ بالمنتحرين ...))[14].

يكشف النص عن نمط السرد الموضوعي ،وعن الدور الذي لعبه الراوي في متابعته لشخصياته (مخلف النايف ،نمر الفلسطيني)،بوصفه يمتلك الهيمنة والسلطة السردية في رصد ومتابعة كل ما يقومان به من فعل او قول ،بعد ان جمعتهما المصادفة في هذا المكان وهو قلعة آشور .فمخلف النايف بسبب فقدانه لحبيبته رفض واقعه وهجر قريته الواقعة في الضفة المقابلة لقلعة آشور ،وذلك عندما عاد من العسكرية بإجازة قصيرة وعرف بمصير حبيبته (حسنه) – والتي عاهدته على الزواج منه قبل ذهابه الى العسكرية – انها زوجت بالإكراه من ابن المختار فاضطرت الى الهروب ليلة عرسها الى النهر واغرقت نفسها فيه .

اما نمر الفلسطيني فهو الاخر ضاقت به سبل العيش والارض الفلسطينية ، بعد غزو وطنه (فلسطين) من قبل الصهاينة والمحتلين ،فهجر الوطن وعبر الحدود مع البدو الرحل لتستقربه الحال اخيرا في قلعة آشور. وفي القلعة دفع الجوع الاثنين معا (نمر الفلسطيني ومخلف النايف) الى النزول من القلعة الى الغابة المجاورة لها بحثا عن صيد معين ،طيرا كان أم حيوانا لشوي لحمه واتخاذه غذاء لهما ،وقد تم في الاخير اللجوء الى صيد خنزير ،فأذى الجوع دفعهم لشوي لحم خنزير واكله على الرغم من انه محرم عندهم شرعيا لكنهم مضطرين غير باغين ،مع العلم انه تم في بداية عملية الصيد قتل الكثير من الخنازير من دون الاكتراث بها، بل كرها لها وتخلصا من شرها، ومن ثم القيام برمي جميع الجثث في النهر ،الامر الذي أثار حزن مخلف النايف في نهاية المطاف اذ راح يذكره رمي الجثث في النهر بإغراق حسنه لنفسها في النهر ذاته ،واخذت الافكار والهواجس تراوده وتدفعه الى اغراق نفسه هو الاخر بنفس النهر والالتحاق بركب حسنه ،لكنه اخيرا تراجع ورفض الفكرة.

فالراوي وضمن سلطته السردية يتابع كل ما يقوم به مخلف النايف ونمر الفلسطيني من عملية صيد للخنازير وما اعقبها من اشعال للنار، وقيام عملية الشواء ومن ثم الاكل حتى التخمة والتحرك على الشاطئ ،ورصد كل ما يدور بخلدهما من افكار وهواجس مختلفة. اذ ان الراوي ومن خلال موقعه المهيمن تمكن من السيطرة على المشهد الروائي برمته، وهو يروي ادق تفاصيله وجزيئاته. وقد اعتمد الراوي الرؤيتين الخارجية والداخلية في متابعته لتلك الشخصيات، فالرؤية الخارجية تبرز في قوله :(يتقدم مخلف النايف ببطيء واصلا الاشجار وهو يحمل عدته المثلجة الثقيلة ،يلف ذراعيه حول جذع احد الاشجار ،ينظر الى خلدون لا يبصر

شيئا).- وقوله: (لم تعد ريحا، صارت عاصفة جاءت بقوة منحدرة من اعلى الجبال .تندفع وهي محملة باطنان الثلوج يزداد الصفير ويزداد اهتزاز الاشجار ،ويزداد مخلف النايف التصاقا بالشجرة، مغمضا عينيه ،ممتدا مع ساقها كما يصلب المسيح. صامت لا يتكلم.....). - وقوله: (قام مخلف ومشى متخطيا على الشاطئ واضعا يديه تحت نطاقه العسكري ،مدليا رأسه للأرض يسير بخطوات جنوبا مع النهر ثم يرجع.....). اما الرؤية الداخلية فتبرز بقوله :(مخلف النايف متجمدة اطرافه من البرد. الملابس الكثيرة لا تحميه من هذا الزخم الهائل من الثلج المدفوع بقوة الى المجهول ..يجلس القرفصاء بجانب جذع الشجرة وذرات من الثلج تتساقط عليه وهي تتماوج ،يشعر ان اطرافه تتقطع بفعل البرد. بدأ حلقه يجف ،وعيونه كساها الاحمرار ،ودقات قلبه بدأت بالخفوت شيئا فشيئا...). وقوله : ردد مع نفسه أيكون النهر مأوى للأحباب والخنازير ؟ اتلاحق الخنازير جسد (حسنه)؟.يقف ثم يمشي ويحمل حجرا ويرميه في النهر .. يفكر بالانتحار من جديد ..يريد الموت غرقا .....).

- الوصف:2

يعد الوصف ((نظاما او نسقا من الرموز والقواعد يستعمل لتمثيل العبارات او تصوير الشخصيات، اي مجموع العمليات التي يقوم بها المؤلف لتأسيس رؤيته الفنية))[15]،اذ ان غاية الوصف ((ان يعكس الصورة الخارجية لحال من الاحوال او لهيئة من الهيئات فيحولها من صورتها المادية القابعة في العالم الخارجي ،الى صورة ادبية قوامها نسيج اللغة وجمالها تشكيل الاسلوب))[16].والوصف هو احد وسائل السرد المهمة التي يتوقف بها عند الاشياء والاماكن والهيئات ، وتسهم مساهمة فعالة في بناء النص الادبي كانجاز سردي تعبيري ؛لان السرد ينهض بمهمة بناء الاحداث فيما يعمل الوصف على تصوير هذه الاحداث وتشخيصها ،وهو يتغلل في كل انواع السرد حتى بات ((من الايسر ان نعثر على الوصف من دون السرد من ان نعثر على السرد من دون الوصف)) [17].

وتجدر الاشارة الى ان الوصف في كل الاعمال السردية لا يمكن باي حال من الاحوال ان يلتقي مع السرد ويسيرا في نطاق عملي واحد ،فاذا كان النص مهيمنا عليه السرد ،فحالما يدخل الوصف مجال القص تخلى السرد عن دوره لصالح الوصف. على ان الوصف لا يأتي في النص بلا مبرر ، بل لابد ان يقوم بوظيفة من الوظائف التي حددها النقاد وهي :الوظيفة التزيينية ،الوظيفة التفسيرية ،الوظيف الايهامية. ان وظيفة الوصف التزيني تهدف الى بناء ديكور وتحديد اطار للحدث وتصوير الشكل الفيزيقي للشخصيات [18].وهذه الوظيفة قد تخل بالوصف اذاما حملت معاني ودلالات ابعد من مجرد تمثيل الاشياء. اما الوظيفة التفسيرية فتعمل على تفسير الافعال والسلوك التي تمارسها الشخصيات [19] ،بمعنى انها تقدم صورة تبريرية او تأويلية لما تقوم به الشخصية من فعل على نحو معين. وتعمل الوظيفة الايهامية على ايهام القارئ بحقيقة

وواقعية العالم الذي يقرأه ، اذ انه ((يدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الرواية التخيلي ويشعر القارئ انه يعيش في عالم الواقع لا عالم الخيال))[20] .

فاذا كان السرد في مفهومه العام وصف للأفعال والاحداث الجارية في ساحة الرواية ، فإن الوصف ضرورة في الاماكن والاشخاص والاشياء ،لأنه يشكل عاملا مساعدا مع السرد في توصيل الخطاب السردي الى المتلقي ،وربما يعمل الوصف وفقراته على التقليل من الزخم السردي ،فضلا عن الجوانب الجمالية والشكلية التي يمكن للوصف اضافتها للفقرات السردية المندمجة فيها[21].

تعتمد رواية صدى مكحول التركيز على السرد اكثر من الوصف ،وهذا الامر يكاد يكون حالة شبه طبيعية ، بوصف الرواية نص يقوم على الاحداث ،والسرد هو من يقوم بعرض تلك الاحداث وتقديمها ، ولهذا شغل السرد مساحة اكبر من مساحة النص الروائي ، فيما تنحصر مهمة الوصف فيها في الوقوف عند الاشياء والاماكن والهيئات ،فيأتي هذا الوصف اما لذاته او لغير ذاته اي انه يتجسد داخل الحركة السردية من دون ان يضع الراوي بين السرد والوصف حاجزا يفصل الاول عن الاخر.

1- وصف الشخصيات:

اكتسب وصف الشخصية اهمية كبيرة لدى كتاب الرواية .فكلما كانت معرفتنا بالشكل الخارجي للشخصية مفصلة ازداد علمنا بها ((لأنك اذا لم تعرف الشخصيات جيدا بحيث تستطيع ان تشاركها مشاركة وجدانية فلن تعبأ بما يحدث لها))[22] ، فالشخصية الروائية تتمتع بخصائص وسمات معينة تبعث على الاهتمام بها ،لأنها مهيأة لتشكيل احداث الرواية ، لذا فان رسم الشخصية ووصفها في غاية الاهمية بالنسبة للعمل الروائي ، ((لأن القارئ بحاجة الى رؤية الشخصية الحية الناطقة ، النابضة عروقها بالصدق والحرارة فيتحسس من خلالها روعة الحقيقة وحرارة الحياة واذا ما تفاعل معها ، واقتنع بها تولد جوٌ من الود والتعاطف))[23].

ولكي تظهر الشخصية بصورتها الحية الفاعلة فان الكاتب يستثمر حدود إمكاناته السردية لإظهارها بالصورة التي تستجوبها طبيعة الحدث الروائي اولا ،وتحددها الافضية السردية ثانيا ، وغالبا ما يتم وصف الشخصية بصورة مركزة ينتقي فيها الراوي الواصف اشد الصفات قوة وتأثيرا في حساسية الشخصية وطبيعتها وكيفيتها الخارجية والداخلية. ووصف الشخصية في رواية صدى مكحول غالبا ما يقوم على تحديد هيئتها ،وملامحها الخارجية ،أفعالها وسلوكها ،من دون التوغل إلى اعماق الشخصية , وبالشكل الذي يخدم دور الشخصية في مسار ألاحداث.

يقول الروائي في وصف مخلف النايف: ((مخلف النايف الذي كره الحرب ،القروي الذي يمقت القيود والجلوس ساعات بلا حركة ،الاسمر الوجه، الطويل، الجعد الشعر ،الذي لم يحصل الا على الدراسة المتوسطة قضاها في المدينة الصغيرة القريبة من قريته ثم التحق بالجيش لحاجته المادية وفقره ،مخلف النايف الاعزب المحب للكتب ...المطالع بنهم.....المؤمن بالفطرة ،الملحد ، المحب ،الكاره ،الصلب ،الضعيف ،مخلف النايف مجموعة تناقضات ورثها عن اجداده عن بيئته في قريته الشمالية القريبة من جبل مكحول ...))[24].

يأتي الوصف هنا مفصلا ،يخوض في التفاصيل المتعلقة بمخلف النايف ،وتتضح صورة الوصف من خلال المعلومات التي قدمها الراوي ، والذي كان بدوره حريصا على ابراز ملامحه الخارجية المتعلقة بالطول ،وبشرة الوجه ،ولون الشعر وسلوكه وحركاته ،وبعده الفكري والاجتماعي وما يحب وما يكره. فمخلف النايف لم يحصل الا على شهادة الدراسة المتوسطة والتي اكملها في قريته ،وبسبب حاجته المعيشية لجأ الى التطوع في الجيش ،وهو في الحاضر السردي عسكري في ساحة المواجهة مع العدو .وقد جاء وصف الراوي المادي والمعنوي له لحظة نزوله من الطائرة العسكرية التي نقلته مع مجموعة من الجنود والجرحى من خطوط المواجهة مع العدو، والتي تقع في منطقة جبلية وعرة ،لتنزلهم اخيرا في مطار السليمانية ،فيتوجه بعدها مخلف النايف بإجازة الى قريته (اسديرة) الواقعة في الضفة المقابلة لقلعة آشور.

ويصف الراوي مختار القرية بقوله:((المختار الضخم الجسم الكبير الكرش الذي يحمل تراكمات الماضي وقيم الاقطاع ،يوم كان الاقطاع هو المسيطر بل ان المختار ابن سلمان الذي هرب الى الخارج اثناء الثورة التي اطاحت بالملكية))[25].

فالراوي اختزل الوصف بالتركيز على طبيعة الهيئة وشكل الجسم، وهي اوصاف كافية لإبراز صورة المختار المرهبة المنسجمة مع طبيعة تعامله المتسلط والجبروت الذي تعامل به مع ابناء قريته ،فأبناء القرية لا يقوم اي شخص منهم باي عمل الا بموافقة منه في كافة امور الحياة زواج ،طلاق ،شراء ،بيع ..ولاسيما بيع المحاصيل الزراعية ....الخ. فالمختار يتصرف بنفس تصرف الاقطاعيين ،ويقتفي أثرهم ويتمسك بقواعد سلوكهم وما رافقها من قيم عبر تراكمات الماضي . وبسبب سوء تصرفه مع أبناء القرية صار في النهاية عنصر ممزق لشمل ابناء القرية ومفتت لوحدتها ،فهو رفض تزويج ابنته (وحيدة)من احمد احد ابناء القرية بسبب فقره على الرغم من علاقة الحب بينهما، وزوج ابنه ممدوح بتسلطه من حسنه احدى بنات القرية ،التي كانت عشيقة مخلف النايف والذي كان على وشك الزواج منها ،يوم كان في العسكرية ،لتؤول الاحداث في النهاية على اقدام حسنه على اغراق نفسها في النهر بعد هروبها ليلة عرسها ،ورحيل مخلف النايف عن

القرية يوم نزوله من العسكرية بإجازة ومعرفته بما جرى لحبيبته حسنه، فيخيم على القرية في النهاية جو من الحزن وخيبة الآمال.

ويصف الراوي الرجل البدوي الذي ساعد نمر الفلسطيني على الانتقال من مدينة حلب الى الصحراء وذلك بقوله:((يجلس بجانبي على الكرسي شخص بدوي ،يرتدي الاشمغ والعقال تدلى شواربه حتى تغطي شفته العليا ،ولحيته سوداء يتخللها بعض الشيب. شواربه تميل الى الرمادي بفعل التدخين المستمر ،فهو يدخن من غليونه القديم....))[26].

فالبدوي مميز بشخصيته ،هيئته ،طوله وملامح وجهه الخشنة ، وشاربه الكث وزيه الشعبي العام، فضلا عن لغته المميزة بلكنتها الخاصة .فهو مهيئ بجسمه وملبسه للعيش في البيئة الصحراوية . ملامح البدوي واوصافه التي حددها الراوي مكنت نمر الفلسطيني الذي كان يروم الهروب الى البلدان المجاورة عبر الصحراء من التعلق به ،عندما جلس بجانبه داخل سيارة الاجرة التي تنوي التوجه من دمشق الى حلب .فنمر الفلسطيني لا يملك جواز سفر وليس لديه امكانية مادية للسفر ،فلا حيلة له للسفر الا اللجوء الى البدو وطرق سيرهم المجهولة عبر الصحراء .فراح نمر الفلسطيني يربط نفسه بالبدوي ،مدعيا له انه صياد نسور ليكسب وده ؛ لأنه يعرف ان هذه المهنة محببة لدى البدوي وابن الصحراء بشكل خاص ،ولاسيما صيد النسور .فملامح البدوي وأوصافه وطبيعته المميزة ،التي بينها الراوي هي التي حفزت نمر الفلسطيني لتسويق فكرته – صياد نسور – التي نجح بها في تحقيق مبتغاه ،اذ تمسك به البدوي والتزمه واخذه معه الى بيته في الصحراء الواسعة ، وبعد اكرامه هناك في البيت هيأ له مستلزمات الصيد ،ثم وجهه الى مكان معين تتواجد فيه النسور ،ليستغل نمر الفلسطيني الفرصة للرحيل ،اذ يخرج ويرصد ما حوله ، لتمر من قربه قافلة بدو ويلتحق بركبها وهي متجهة نحو الشرق ، بعد ان ابت نفسه ان يكون صيادا للطيور، ولا سيما النسور رمز الحرية والاباء ،وان ما قاله للبدوي (انه صياد نسور)هو حيلة وادعاء ليصل بواسطته الى قلب الصحراء ، وليتمكن أخيرا من الوصول الى قلعة اشور مع القافلة الاخيرة والتي صعد برحلهم من دون ان يسألوه من اين قادم والى أين ذاهب، فالبدوي لا يسأل لأنه لا يعرف الاستقرار ،فهو بلا مكان. والكاتب في رواية صدى مكحول ركز على وصف الملامح الخارجية لشخصياته من دون الاهتمام بدواخلها ،وكان حريصا على ابراز شخصياته بالأوصاف التي تظهر فيها.

2- وصف المكان.

للمكان اهمية كبيرة في العمل السردي (القصصي والروائي)،اذ تتحرك فيه شخصيات الرواية ،وتتجسد فيه المشاهد الاخرى ،فهو وعاء للحدث والشخصية واطارهما ولغيرهما من عناصر الرواية [27] ،ويعد الوصف من اهم الاساليب في تقديم المكان ،فهو يؤطره ويمنحه حضوراً وعمقاً دلالياً. ولا يقل وصف

المكان اهمية عن سرد الاحداث والافعال في الرواية ،اذ ان وصف المكان يهيئ القارئ لاستقبال الحدث ويعطيه تصوراً اولياً لما ستؤول اليه الاحداث. والكاتب في هذا النمط من الوصف يحتاج الى الاحاطة الكاملة بالمكان الذي ينوي وصفه، فهو مطالب بأن يجعل القارئ يحس بالانطباع والجو المألوف الخاص به ،وان يستطيع مراقبة الشخصية في عملها وفي حياتها ،وان يرى ما تراه الشخصية من وجهة نظرها وما تحس به تجاه هذا المكان [28].

والقارئ المتتبع للأحداث في رواية صدى مكحول يجد ان تلك الأحداث تنهض على وقائع وافعال متناثرة يتوزع وقوعها ما بين حدود العراق الشرقية حيث جبهة القتال ، فمدينة السليمانية ، وانتقالا الى الضفة المقابلة لقلعه آشور من جهة ،وسوريا مرورا ببعض مدنها مثل دمشق، حلب ودخولا الى صحراء العراق الغربية. وقد جمعت الرواية في احداثها بين السلم حيث الحياه المدنية بطابعها الريفي البسيط بقيمه وعاداته المتشددة منها والمتسامحة من جهة ،ومن جهة اخرى طابع الحرب الذي شغل جانبا من احداثها ، وطبيعة الحياة التي يعيشها ويحياها المقاتلون وهم يتلظون بنار الحرب من جهة اخرى ،فضلا عن طابع الهجرة والتشرد الذي لف ابرز شخصيات الرواية الرئيسة. والكاتب – رحمه الله – استطاع بقدرته الإبداعية ان يلملم شتات الحدث المتناثرة ،ويربطها بخيط تواصلي يقوم تنظيمه على التداخل في الاحداث بعد ربط الاسباب بالمسببات من دون الاهتمام بالتسلسل الزمني للأحداث. ان العلاقة بين المكان والحدث الروائي صميمية، اي ((ان الصلة بين المكان والاحداث تلازمية اذ لا نتصور النظر الى الاحداث بمعزل عن الامكنة التي تدور فيها))[29].

فمثلا احداث الحرب لابد لها من مكان حرب مخصص لها وما يفرضه طابع الحرب من سلطة من شأنها تحدد وتميز طبيعة المكان الملائم لفعل الحرب وحجم فعالياتها ، فضلا عن قوة العدو وامكانياته وتواجده وتأثير ذلك على المكان . وفي المقابل حركة الشخصيات في الواقع المدني بعيدا عن واقع الحرب تتطلب تحديدا للفضاء الذي تتحرك فيه وتطؤه اقدام تلك الشخصيات ، فأحداث الرواية التي جمعت في تشكيلها بين السلم والحرب ،بين الاستقرار والتنقل .....بين القتال في ساحة المعركة وبين العيش في القرية أو الريف ،المدينة، او الصحراء .....الخ ،فهي حاشدة بشبكة اماكن متنوعة وبأنماطها المتعددة التي تؤلف جغرافيا مترامية الاطراف ومتسعة الحدود.

فهي تمتد من الفضاء السوري ،دمشق ، ثم حلب ،دخولا في العراق عبر الصحراء ،مرورا بمدينة الحضر ،وصولا الى نقطة الالتقاء عند قلعة آشور ،وفي المقابل مرورا بالفضاء العراقي ، وريفه في الضفة المقابلة لآشور، فالحدود الشرقية للعراق ، ومن ثم مدينة السليمانية ....تناول الراوي بعدسته الواصفة اكثر تلك الامكنة المتنوعة بالمتابعة والتمحيص والوصف الدقيق ، ويتجلى من ذلك قوله في وصف قريته وما يحل

بها من ظروف ،اذ يقول الراوي : ((الجو مليء بالغيوم الداكنة التي تنذر بالمطر ....اسلاك من البرق تتأكسد في السماء تخطف البصر ، رعد يهدر كل ثواني. والغيوم تسير غير مسرعة وهي قريبة من الارض ،وتلتصق بقمم التلال التي تحيط بالقرية....اما الجبل – الجبل الذي يفصله عن القرية نهر دجلة الذي اخضر ماءه كما هو الحال في الشتاء دائما ،قبل ان تغطيه مياه الامطار فقد توارى عن الانظار ،فالغيوم جللته ولم يعد يبصر منه شيئا ...))[30].

القرية فضاء مفتوح لا حدود اصطناعية له .والراوي وهو احد ابناء القرية يختار مكانا مهيمنا يطل بعدسته التصويرية من خلاله لرصد بعض مكونات فضاء القرية وما يخيم عليه من ظروف مناخية ،على وفق رؤية انتقالية تنقل بالوصف من حالة الى اخرى ،او من مرحلة الى اخرى وبطريقة تحرك وتدفع السرد الى امام في مسعى منها لديمومة العملية السردية عبر شحنها بطاقات وصف سردية اداتها الفعالة آلة التصوير بالكلمات ،التي تعمل على نحو فعال وواع في رصد مكونات المشهد ،فترصد اول ما ترصد طبيعة الجو وهو ملبد بالغيوم، ومن ثم لون الغيوم وحركتها، وما يصدر عنها من برق مقترن برعد تشكل صورة سمع ..بصرية ،وهي تتكرر بين الفينة والاخرى ، متغيرة الصورة/ الاتجاه. يصاحب ذلك التغيير تغير في عدسة الراوي الوصفية ورصده لكل ما يهيمن على فضاء القرية ،فالغيوم تسير ببطيء ،وهي تزداد كثافة ودكنة حتى اخذت تحجب بعض معالم الفضاء /الجبل المحاذي للنهر/ التلال المحيطة بالقرية/ دواخل القرية نفسها، فالغيوم تنذر بأمطار غزيرة ،وابناء القرية خبروا مثل هذه الظروف المناخية ،الامر الذي كان له الاثر الكبير عليهم ، وهم يتوزعون خارج البيوت ...في فضاء القرية المفتوح في الحقل ، والبستان، في المرعى وعند شاطئ النهر ....ليعودوا مسرعين الى بيوتهم، بسبب عدم تمكنهم من مزاولة اعمالهم في العراء، وليتجنبوا سقوط المطر عليهم وما يصحبه من برد واطيان يمكن ان تلحق بهم.

يتابع الراوي رصد كل ما تلتقطه عدسته من مشاهد في فضاء القرية السماء/الارض، لتتوحد تلك المشاهد في النهاية بمشهد واحد ،مطر غزير من السماء ،وفي الارض حركة ابناء القرية وماشيتهم عائدين للقرية .وكيف ان مختار القرية عطية السلمان استغل هذا الظرف وهو عودة ابناء القرية الى منازلهم ووصولهم الى داخل القرية ،ليقوم بدعوتهم لحضور عرس ولده (ممدوح)في اليوم القادم من خلال مناداتهم من المسجد في وسط القرية.

وتأخذ مدينة السليمانية بعدا حميميا في بعض الاحداث الروائية ،اذ تغدو حاضنة مكانية لعدد من الشخصيات المقاتلة في الحدود الشرقية ،بوصفها مكانا آمنا وقريبا من خطوط المواجهة مع العدو ،فهي مكان قريب يصلح للتبضع والتواصل والاستجمام بالنسبة للمقاتلين ،لما يشمله هذا المكان من حيوات جميلة وممتعة ،فهي على مر الايام عنصر جذب واستقطاب وتمثل انموذجا مكانيا لتصالح الانسان مع المدينة.

يصف الراوي مدينة السليمانية أثناء تحليق مخلف النايف وعدد من المقاتلين بالطائرة العسكرية التي اقلتهم من ساحة المعركة الى مطار السليمانية، وعند مرورهم من اجواء المدينة بقوله: ((تحوم الطائرة فوق المدينة ....جميلة هي السليمانية تعج بالحركة وسط جبال تحيطها من كل الجهات. شوارع نظيفة ككل مدن الشمال ...الخضرة تحيط بها من كل الجهات ،في داخلها ترتفع كثير من الاشجار العالية .الجبال المحيطة بها خضراء ما عدا قممها العالية فالثلوج تغطيها. يتطلع للمدينة هادئة ،آمنة رغم انها قريبة من الاعداء .لا شيء يذكرها بالحرب سوى الآلاف من الجنود المتجولين في شوارعها وفي مقاهيها وامام حوانيتها، وهم يتسوقون ما يحتاجون قبل الرحيل الى الجبهة...))[31].

يتحدد الوصف بإبراز معالم واجزاء رئيسة من هذه المدينة في ظل ظروف استثنائية يعيشها الناس آنذاك ،الا وهي ظروف الحرب القاسية ،الا ان الوصف نأى عن تلك الظروف ليستقل بفضاء جمالي خاص بعيدا عن اجواء الحرب ونتائجها .يعتمد الراوي بوصفه للمدينة على رؤية مخلف النايف ،اثناء وجوده في الطائرة ،فالوصف جاء من موضع تصويري متعال ومتسلط على المكان، فعدسة التصوير والوصف للمكان اشبه بعين الطائر تسمح للواصف ان يثبت المعالم الخارجية العامة للمكان ، فجاءت معالم السليمانية متمثلة بعناصر جمال لهذا المدينة ،فارتكاز المدينة بهدوئها الآمن وسط سلسلة جبال شامخة ،مغطاة بالخضرة عند المدارج وفي السفوح ،وبياض الثلوج يرتفع في القمم واعالي المرتفعات ،مما شكل طابعا جماليا يضاف الى جمال الداخل المكاني للمدينة ،حيث الشوارع الواسعة النظيفة ،تحيطها الاشجار العالية ،حركة الناس الدائبة، تملأ شوارعها ،وفي محالها ،فالمدينة لا شيء يعكر صفوها ويذكرها بالحرب التي تخيم على الجو العام للوطن وتشغل المناطق والاماكن القريبة والمحاذية لحدودها سوى حركة الجنود داخل المدينة، وهم يجوبون المقاهي والحوانيت ينفهون عن انفسهم ويفرجون عن كربهم ،ويتبضعون حاجياتهم ،وهم بين الغادي والآيب من خطوط المواجهة واليها مع عدوهم. ينتقل الراوي الى ساحة المعركة ويصف الاماكن التي يشغلها المقاتلون في ساحة المعركة ،وتعد الملاجئ من اهم الامكنة التي تستخدم في الحرب ، بوصفها الاكثر استجابة لدواعي الحماية والاختفاء وسرعة وسهولة الانشاء بالنسبة للمقاتلين ،فضلا عن قابليتها الجيدة على الصمود امام القذائف المعادية المنهالة.

يقول الراوي:((يتلاشى مخلف النايف بموضعه. ملجأه الصغير....الملجأ مستطيل الشكل محفور في الصخور وتحيط به اكياس من التراب. ثمة ثقوب تخترق الملجأ متجهة نحو الشرق لتبصر الاعداء الذين لا يملون الهجمات، يجلس القرفصاء ،ما في الملجأ مبعثر وغير منظم ....اربعة من رفاقه مضطجعين به. كلهم من صنف المشاة. من مناطق مختلفة من العراق..))[32].

فالملجأ مكان الاضطرار واللجوء ،مكان القتال بخفاء وسرية من عين العدو ،وهو مكان طارئ بحد ذاته ،ولا يمكن لأي مقاتل التعايش معه زمنا طويلا ،فهو زائل بزوال الحرب ،او انتقال المقاتل الى مكان آمن ،ومهما يكن فان في ساحة الحرب لابد من وجوده، فالمقاتل لا يستطيع البقاء في العراء مقاوم لظروف المناخ من حر او برد على اقل تقدير .فكيف به اذا ما كان يقابله عدو ، ويتربص به في الارض والجو ؟.

يصف الراوي الملجأ بشكله المستطيل فهو محفور بالصخور ، ومحاط بأكياس التراب ، فهو مؤسس على قواعد ومعرفة عسكرية ،فالاستطالة لها دواعيها وايجابياتها ،فهي تقوي سقف الملجأ قياسا بالعرض ، وامكانية الصمود اكثر امام القذائف المعادية، فضلا عن انها تسهل تباعد المقاتلين في داخله تلافيا للطوارئ ، ويمنح مجالا اكثر لمراقبة العدو ،فهو ملئ بالثقوب من جهة الشرق ، ومحاط بأكياس من التراب ،وهذه الاكياس تمنع وتعيق السلاح الخفيف والمتوسط من الاختراق الى داخل الملجأ، والاسلحة الثقيلة من التشظي والانفلاق وتحصرها بدائرة ضيقه اقل تأثيرا وخطرا. المقاتلون في الملجأ وان اختلفت مناطقهم فهم اخوة في داخل الملجأ كأبناء البيت الواحد ،اذ وحدهم المكان بالإحساس والشعور بالمسؤولية والالم والهدف والمصير المشترك ، فهم يقاتلون عدوا واحدا ،وهم بالوقت نفسه هدف مشترك لنيران ذلك العدو.

وتعد الصحراء من الاماكن المفتوحة الخالية من البشر ،فهي مكان لا يعرف الحدود ،الامر الذي يهيئ كثيرا لبعض الجماعات الدخول في البلد المجاور لبلدهم عبر الصحراء بطرق سرية وبشكل خفي بالنسبة لعيون السلطة ،مثلما فعل نمر الفلسطيني ، فهو لا يملك مالا ولا جواز سفر بشكل قانوني ،فأضطر الى الالتحاق بركب البدو الرحل عندما التقى احد متبضعيهم في مدينة حلب فراح يدبر الحيل ويلصق بنفسه بعض المهن والاعمال لجلب انتباه البدوي ولكسب وده مدعيا له في النهاية انه صياد نسور ماهر ويبحث عن اماكن تواجد النسور ،فهو يعرف جيدا ان النسور تتواجد في الصحراء ،وان البدوي يحب مهنة الصيد ولاسيما صيد النسور .فحالا التزم به ذلك البدوي واخذه معه الى بيته، بعد ان سارا طويلا في عمق صحراء العراق ،مغدقا عليه بفيض كرمه المعهود عن اكثر البدو ، وليكن بيت البدوي في عمق الصحراء منطلقا لنمر الفلسطيني الى امكنة اخرى تنسجم مع ذاته ليستقر بها ، ويواصل نضاله من اجل وطنه فلسطين الارض والتاريخ والشعب المغتصب.

يخرج نمر الفلسطيني من بيت البدوي بحجة انه يمارس مهنة الصيد بعد ان هيأ له البدوي كل عدة الصيد ووجهه الى مكان باتجاه معين ،يسير نمر بذلك الاتجاه ،فتمر في تلك ألاثناء من قربه قافلة بدو فيلتحق بركبها ،وهي تقطع عرض الصحراء وطولها بلا طرق معهودة او شعاب مسلوكة ، وانما تسير على وفق اتجاه محدد او الاهتداء بالنجوم والكواكب الاخرى ولا سيما آخر الليل.

يصف الراوي الصحراء /المكان المفتوح بقوله: ((الصحراء اللامتناهية تبتلعنا ، والتلال الرملية المتحركة والمتغيرة كل لحظة تحيط بنا .لا نرى شيئا حولنا سوى ظلنا اللاهث وراءنا ... الصحراء الرمال الطاهرة التي لم يلوثها شيء، الحرية الكبرى ،فذرات الرمال الصغيرة متنقلة كالفلسطيني ، اليوم في صحراء سوريا وغدا او بعد لحظات في صحراء العراق او الحجاز ، متنقلة لا تعرف الحواجز لا تتوقف عند الحدود ،الصحراء موطن الاجداد الخالي من البشر ، الصحراء ساحتهم التي لم يهزموا بها ،مأواهم الاخير في الشدائد....))[33].

الراوي في هذا المقطع وصف المكان /الصحراء ، وقد جاء وصف الراوي ممتزجا مع رؤيته النفسية والذاتية للمكان القفر ،فهو مكان لا انس فيه الا الراوي نمر الفلسطيني وصاحبه البدوي وظلاهما المتحركان وراءهما كتحرك الرمال .فالصحراء ارض الجدب وفقر الحياة ،بل وانعدامها احيانا، فهي مكان من لا مكان له ، وملجأ من لا حيلة له. انه مكان لا يعرف التزاحم لأي جنس من فروع الحياة المختلفة ،فهي تخلو من مقومات الحياة الطبيعية لكافة فروع الحياة انساني ،حيواني ،نباتي ،وما وجد – وهو قليل – فلا بد انه تميز بطبيعة خاصة وهي التحمل ولاسيما العطش بسب قلة الماء او انعدامه ،فضلا عن مقاومة الظروف البيئية الاخرى .فالصحراء اصلح ما تكون مجالا للتنقل من خلالها وعن طريقها والتواصل مع الاماكن والمواطن المحاذية لها، ولا سيما بالنسبة للأشخاص الذين يحبون التواري عن عيون السلطة. وقد انتبه الروائي ابراهيم حسن الى اهمية آلية الوصف في تشييد البناء الروائي ، على النحو الذي اولاه اهمية خاصة على صعيد لغة الوصف ، والتركيز على الملامح التي تبرز جماليات الموصوف وتعكس صورته الوصفية السردية.

3- الحوار.

التقانة الأخرى التي يستخدمها الكاتب في سرد احداث تجري بين شخصين او اكثر . وقد عرفه بعض الباحثين بانه ((حديث بين شخصين او اكثر تتضمنه وحدة في الموضوع ووحدة في الاسلوب))[34]،ويشكل الحوار نمطا تواصليا فنيا ((يتبادل فيه المتحاورون الارسال والتلقي في تعاقب يحدده فضاء نصي، تعمل وحداته الكلامية على انتاج دلالة في خط متنام لفعل درامي)) [35].

وللحوار وظائف متنوعة بوصفه وسيلة سرد. فهو يكشف افكار الشخصيات وخلجاتها الداخلية، لأنه مرتبط بها وهو الوسيلة المباشرة امام الشخصيات لتعبر من خلاله عن افكارها ورؤاها المختلفة ، وهو الوسيلة الاساسية للكشف عن وعيها وموقفها من العالم الذي تعيش فيه. ولا يقتصر الحوار على الكلام المنطوق المتبادل بين الشخصيات فقط ،وانما قد يكون بين الشخصية وذاتها حين ترجع الشخصية الى عالمها الداخلي وتحاوره ،فحينئذ يكون الحوار غير ملفوظ ولا مسموع ،ولا يعرف كنهه سوى الذات المحاورة نفسها ، والقارئ

فيما بعد اذا ما كشف النص عن افكار الشخصيات وحواراتها في اطار العملية الابداعية .وعلى هذا الاساس يقسم الحوار على نوعين: أ- **الحوار الخارجي (الديالوج). ب- الحوار الداخلي (المونولوج).**

أ- الحوار الخارجي (الديالوج):

وهو الحوار((الذي يدور بين شخصين او اكثر في اطار المشهد داخل العمل القصصي بطريقة مباشرة))[36]،لذا فهو حوار تناوبي تتناوب فيه شخصيتان او اكثر، لان التناوب هو السمة الاحداثية الظاهرة عليه ،ويكون صريحا معتمدا على صيغ شمولية في التواصل الكلامي لذا يتطلب وجود شخصين يتبادلان الارسال والتلقي [37]. فهو يتمثل في كل كلام منطوق مرسل من المحاورِ مسموع مستقبل من المحاورَ، ويجري بشكل متناوب ، وهو نتيجة حتمية تفرضها المواقف والاحداث، وبواسطته تتصل شخصيات الرواية بعضها ببعض اتصالاً مباشراً ، وبذلك فهو يعطي الفرصة للشخصية لتأخذ دورها في مجرى الاحداث.

من المعلوم ان هذا النوع من الحوار يعد التقانة الاكثر شيوعا وانتشارا في الفن القصصي والروائي على حد سواء منذ نشأته حتى الآن ، ولا يكاد يخلو فن من تلك الفنون من هذا النوع من الحوار ، ذلك ان القصة والرواية بأبسط اشكالها هي سرد لحدث او مجموعة احداث ، تقوم به الشخصيات اذ تخوض صراعا مع الاحداث وتتفاعل فيما بينها الأمر الذي يحتم حوارا بينهما بوصفه وسيلة خطاب متبادلة تفاهميه يتكشف عبرها الحدث وينمو ،وتتجلى على نحوها المواقف المختلفة. والحوار في رواية صدى مكحول جاء بصيغ واشكال عديدة ،وهو قصير الى متوسط الطول الى الطويل احيانا ،وقد يأتي هذا الحوار خالصا لا اثر فيه للسرد ،وهذا الشكل هو الاكثر استخداما في هذه الرواية ،وقد يأتي فيها الحوار غير خالص ،وانما مصحوب ببعض الجمل السردية وهذا النوع من الحوار كثيرا ما لجأ اليه الكاتب في رسم صيغ الحوار بين شخصياته.

ومن امثلة الحوار الخالص الذي لا اثر للسرد فيه ،الحوار الذي يدور بين مخلف النايف ونمر الفلسطيني اثناء خروجهما من القلعة في ظلمة الليل ،وهما يتجهان بمحاذاة نهر دجلة نحو الغابة القريبة بحثا عن صيد لسد رمق الجوع الذي آذاهم بعد لجوئهم الى القلعة تخلصا من الظلم والبطش الذي واجهه كل منهما في واقعه المعيش .فيقطع نمر الصمت الذي كان مخيماً عليهما ، وهما يسيران نحو الغابة قائلاً:

- ماذا لو خرج ذئب ليفترسنا ؟!.

- يفترسنا ...!. والبندقية؟.

- افرض انها قديمة ولم تطلق النار عليه.

– لا يحدث شيء ،مجرد لحظات الافتراس ثم نصبح عظاما متناثرة على الشاطئ ،حالنا حال الذين يموتون كل يوم في ارض العرب .بلا ذنب او سبب.

– واذا احرقنا الغابة ؟.

– نكون قد احرقنا الصحراء ..نكون قد فجرنا الكهوف وهدمنا القلعة وقتلنا آشور من جديد .ان الغابة بنت ارضنا .بنت مكحول ودجلة .

– وان امم كل نفط العرب؟.

– سيصل ماء الفرات الى البحر .سيسقي النيل الصحراء الكبرى .

– واذا تحررت فلسطين ؟.

– سأكون اول المؤذنين في جامع سيدنا عمر .

– ولو توحد العرب ؟.

– اموت من الفرح ،وان لم امت اركب ناقة من البصرة الى مراكش .معلنا في القبائل اني الرشيد .

– وان تمت الوحدة ؟.

– سيزول الحكام بالطبع .

– واذا وكلت لك محاكمتهم فماذا تفعل ؟هل تحرقهم ،ام تشنقهم ،ام تقذفهم في البحر ..ام ماذا ؟.

– سأعفو عنهم ،وهذا شرف .وتلك فضيلة .

– أتعمل حارسا ؟.

– للثورة. والفقراء .

– اتصير معلما ؟.

– بشرط.

– وهو؟.

– اجعلهم احرارا في كل شيء ." [38]

في هذا الحوار نقف عند المستوى الذهني لشخصيات الرواية الرئيسة نمر الفلسطيني ، ومخلف النايف ،والمستوى الانفعالي لهما أيضا ،ذلك ان الفضاء المكاني الذي تشغله هاتان الشخصيتان هو مكان مهجور ، خرب (قلعة آشور) فهو محاط بالأودية العميقة ، والتلال المشغولة بالقبور القديمة ،فضلا عن الغابة الكثيفة ،فالمكان لا تعرف اسراره بل انه على الاكثر محاط بالمخاطر ،فهما جمعهم المكان مصادفة ،بعد هروب كل منهما من بطش واقعه المرير ،فمخلف هجر قريته في الضفة المقابلة لآشور تخلصا من ظلم المختار ،وتدخله السلطوي المقيت في كل صنوف الحياة في القرية ،فهو يأمر كل فرد من ابناء القرية بأن لا يفعل اي شيء الا بعلمه ،او بعد مباركته (زواج ، طلاق ،بيع محصول ،شراء .....الخ).

واخر افعاله تزويج ابنه جبرا من حسنه محبوبة مخلف ،التي على أثرها فقد مخلف توازنه، ولا سيما انه لم ير لهذا الظلم نهاية الا بالهرب بالجسد والروح المجروحة بحثا عن الحرية واستقرار النفس والاحلام ،فوقع اختياره على قلعة آشور ،في المقابل نمر الفلسطيني الذي واجه في وطنه فلسطين اعتى ظلم وأقسى تسلط وبطش عرفته ابناء الانسانية على مر التاريخ ،ولم يجد من ناصر ولا معين وليس هناك من حل الا بالهرب هو الاخر والبحث عن ملاذ امن فكان لجوؤه الى قلعة آشور ،فمخلف ونمر يجمعهما الظلم وكل منهما مضطهد وقد واجه ظلما اجبره على التشرد ومغادرة المكان القرية/الوطن ،ومن ثم يوحدهما المكان / القلعة في مقاساة ظروف العيش والمصير المجهول ،وهما يسيران على مقربة من الغابة مخبأ الحيوانات المفترسة ،ولصوص الليل وسط ظلمة الليل البهيم.

فرابطة الظلم /المصير التي تربط كل من مخلف ونمر جعلت نمراً ان لا يقف عند تلك الروابط المعروفة مع صاحبه ، فأراد ان يطمئن له ويعرف عنه المزيد ويسبر غوره والذي بدا له انسانا طيبا ،فراح ينثال عليه بأسئلة تكاد تكون مانعة جامعة ، اجتماعية ، ثقافية ،وجدانية تجلت عبرها شخصية مخلف النايف الرجل العراقي والانسان التقي والمخلص تجاه كل القيم الانسانية ، الوطنية ،والعروبية، ذات القيم والمبادئ الانسانية الاصيلة .وعلى اثر جواب تلك الاسئلة ازداد اطمئنان نمر الفلسطيني لصاحبه مخلف النايف فدخلا الغابة معا.

اما النوع الثاني من الحوار ،فهو الحوار غير الخالص الذي يأتي ممتزجا ببعض الجمل او المقاطع السردية ،كما في الحوار الذي يدور بين المقاتل ظافر وزميله مخلف النايف.

"يدخل عليه ظافر باسما. وقائلا :

– هيا البس ملابسك يا مخلف .انت مجاز، وطائرة الارزاق عائدة بعد قليل.....

قفز من مكانه وغرس رجله في حذائه بسرعة البرق ،ولبس سترته الثقيلة .وركض مسرعا خارج الملجأ ..ناداه ظافر وهو يضحك..

– مخلف .. يا مخلف نسيت نموذج الاجازة .

– يقف .يرجع راكضا نحو ظافر ..اين هو ؟.

– مادا ظافر يده نحو مخلف ..

هذا هو .اجازة لمدة سبعة ايام .

– يلتقطه.. قائلا :شكرا ظافر .

– الا تودعنا ؟!.

– بلى ..

ثم يأخذ ظافر بين ذراعيه ويعود راكضا نحو الطائرة وهو يردد "لا تلمني يا ظافر سأتزوج .انني ذاهب لأتزوج .

وقف ظافر متطلعا اليه بذهول .فهو لم يألف هذا الشعور الغريب عند رفيقه ..."[39]

الحوار متوسط الطول نوعا ما ، وهو ينهض على تدخلات الراوي المبثوثة بين طرفي الحوار وبشكل مكثف ،وهذه التداخلات عبارة عن توضيحات واضافات ،اذ يأتي السرد في ثنائية الحوار مكملا له وموضحا لحالة كل من الزميلين المقاتلين في خندق القتال ظافر ،ومخلف النايف ،وحالة الغبطة والفرح تجاه الموقف الذي يعيشانه في حاضرهم السردي ، فالمقاتل ظافر هو في طور الاحتفاء وسط الفرح الغامر بزميله المقاتل مخلف النايف، اثر عودته سالما من تنفيذ واجب كمين في عمق ارض العدو كان محفوفا بمخاطر جمة ،كلف به هو وزميله المقاتل خلدون ،وحدث ان تعرضا اثناء تأدية الواجب الى عاصفة ثلجية شديدة جدا ،فقد مخلف بسببها زميله خلدون ،اما مخلف فقد عانى ما عانى اثناء عودته من الكمين من شدة البرد وصعوبة السير والحركة حتى تأخر اكثر من يومين عن العودة الى وحدته ، وعد في وحدته ضمن قائمة الشهداء او المفقودين.

فلما ظهر خلاف ذلك وعاد مخلف سالما على الرغم من التعب والمعاناة الكبيرة التي لحقت به تم الاحتفاء به كثيرا ،ولم يكن بوسع رفاقه في وحدته افضل من تقديم له اجازة زمنية لينفه بها عن نفسه في البيت بين الاهل والاصدقاء ولعدة ايام بعيدا عن الحرب وويلاتها .لذلك كان تدخل الراوي بسرده الذي امتزج

بالحوار اشبه بضرورة ملحة لتوضيح المواقف بصورة اكثر انسجاما مع تلك الاحداث، ليوضح موقف زملائه المقاتلين منه اثناء عودته ،وكيف انهم احتضنوه بغامر عطفهم وحبهم له ومسارعتهم بمنحه اجازة الاستراحة ،وفي المقابل تكثيف الراوي لملاحظته على مخلف وهو يستلم الإجازة، المتعب المنهك من جهة فهو بأمس الحاجة الى راحة معينة ،المتشوق الى اهله ولمتابعة مشروعه للزواج الذي كان يكتمه في داخله ويتحين الفرصة للعودة الى البيت لتنفيذه .وقد كان لمداخلات الراوي اهمية كبيرة لكشف وبيان موقف مخلف من الاجازة حال معرفته بها، وكيف انه خيم عليه الانبهار والسرعة والنسيان .فلولا تدخلات الراوي بسرده المصاحب لثنائية الحوار وطرحه لبعض التفصيلات لما تجلت طبيعة
الشخصيتين المتحاورتين في مثل تلك المواقف
المشحونة.

ب- الحوار الداخلي (المونولوج) :

يعرف (جيمس جويس) المونولوج ((بأنه حديث شخصية معينة ،الغرض منه ان ينقلنا مباشرة على الحياة الداخلية لتلك الشخصية دون تدخل من المؤلف إما بالشرح او التعليق .وهو لكل مونولوج حديث لا مستمع له ،لأنه حديث غير منطوق))[40].

وكذلك يعرفه (رولان بورنوف)ويسميه (المنولوج الباطني) ((وهو خطاب بدون سامع، غير ملفوظ تعبر بوساطته الشخصية عن اكثر مقاصدها صميمية واقربها الى اللاشعور . وهي افكار سابقة على كل تنظيم منطقي ، اي انها في حالة النشوء وذلك بوساطة جمل مباشرة مختزلة الى الحد الادنى من ناحية النمو وبصورة توحي بانطباع انها لاي شخص كان))[41]. ونستطيع عن طريق هذه التقانة السردية النفاذ الى ذهن الشخصية ،لنتعرف على ما يجول بداخلها من احاسيس وافكار ،اذ يعطي الكاتب الحرية للشخصية للتعبير عن ذاتها .محققا بذلك تنوعات سياقية في عرض الحدث من وجهة نظره – ومن وجهة نظر الشخصية نفسها.

لم يقف الكاتب عند حد معين لاستثمار الحوار ،بل انه نوع في اساليبه وانواعه ونماذجه وما يقتضيه الحدث السردي في ضروراته ومواقفه، فالى جانب الحوار الخارجي المباشر هناك حوارات غير مباشرة ،داخلية (مونولوجات) تتجلى بشكل غير واسع تقريبا، وهذه الحوارات تشكل محاولة استقرائية عميقة لقراءة ذات الشخصية، وهي تعيش لحظة طارئة معينة مشحونة بمؤثرات تشغل حساسية الشخصية وتحرك عالمها الجواني. وقد ميز الكاتب هذا النوع من الحوار في رواية (صدى مكحول) باستخدامه الاسلوب التعبيري المحدد (ردد مع نفسه) واحيانا يضع الكلام بين قوسين ..... ويأتي هذا النوع من الحوار قصير جدا بشكل جمل مكثفة تستنبط عالم الشخصية الداخلي وما يضمره تجاه العالم الخارجي ومواقفه المختلفة.

من ذلك الحوار الداخلي لمخلف النايف اثناء وصوله قلعة آشور هاربا من القرية ففوجئ عند وصوله القلعة واثناء وقوفه عند باب جوفها الداخلي المظلم بسماع خطاب متواصل بصوت متهدج يصدر من داخلها موجه الى الملك آشور ، فيه طلب استنهاض الهمة والشجاعة من اجل محاربة الظلم والطغيان ،اضافة الى كشف له بعض الحقائق التاريخية والاعتداءات المتكررة والاطماع المختلفة في ارض العرب ، فانبهر مخلف لكل ما سمعه ولجأ الى محاورة ذاته:((لا اتصور انه مجنون ...! لكن كيف لقبه اهل القرية بالمجنون ؟.اذا لم يكن مجنونا ؟ولكن من اين للمجانين هذا الحديث ؟هذا الكلام ؟كيف عرف المجنون آشور ؟ وكيف عرف انها قلعته المشهورة ؟وما علاقة المجنون بالفرس واليهود؟))[42].

فمخلف النايف الذي لجأ الى القلعة مضطهدا ،انبهر بشكل كبير وهو يقف عند باب جوفها العميق المظلم ،وهو يسمع ذلك الخطاب الطويل في داخلها الموجه الى آشور المستنجد منه القوة والعزيمة والبطولة ، المبصر له بكل ما جرى بعد رحيله من حقائق التاريخ ، واستباحة ارض العرب وخيراتها ،وموقف الحكام العرب المتخاذلين الذين يغضون الطرف عن الاطماع الفارسية واليهودية في ارض وخيرات العرب ،او يكتفون بالشجب والاستنكار في العلن عبر وسائل الاعلام وفي السر يقيمون اعظم العلاقات والمصالح المتبادلة ،ويتبادلون الزيارات المتكررة.

الخطاب الذي طال كثيرا وفيه تمجيد لآشور وتاريخه وحضارته التي شعت على الانسانية جمعاء ، وهو يستنهض منه الهمة والعزم بكل القيم التي رسخها آشور ، التاريخية والحضارية والقيم البطولية والانسانية .فهذا الخطاب الطويل المتجذر في التاريخ والحضارة والاصالة دفع مخلف النايف وهو يسمع هذا الخطاب من دون ان يبصر صاحبه او يعرفه ان يعود الى عالمه الجواني محاورا اياه حول ما ترسخ فيه من معلومات توارثها عن اهل القرية جيل بعد جيل من ان القلعة يسكنها مجنون ،رادا على عالمه الجواني برفض تلك المعلومات المغلوطة ، فالكلام الذي يخترق سمعه في حاضره السردي ما يقوله مجنون ،بل ولا شخص سليم محدود الثقافة، وانما لابد ان يكون وراء هذا الخطاب والحديث القيم شخص مفعم بالثقافة والمعرفة ملما بحقائق التاريخ، عارفا اهمية الملك آشور ودوره الحقيقي في التاريخ والحضارة الانسانية ، ومدركا لخطر الفرس واليهود على مر التاريخ. فمخلف لم يكن يعلم ان في جوف القلعة هو نمر الفلسطيني الذي هاجر من فلسطين الى العراق عن طريق قوافل البدو بسبب بطش الصهاينة ؛لتستقر به الحال اخيرا في قلعة آشور.

وقوف مخلف النايف على باب جوف القلعة برهة من الزمن جعل نمر الفلسطيني الموجود داخل جوف القلعة يحس بوجوده كشخص غريب قد يهدد حياته بالخطر ،وهو المتأهب دائما ،مما دفعه ان يصيح عليه بنداء فيه من التهم والتوعد بالقتل اذا ما وقف في مكانه وقدم تعريفا بنفسه، وسبب مجيئه لهذا المكان

،الامر الذي دفع مخلف النايف وحفز ذاته بالعودة الى عالمه الداخلي ومحاورة ذاته مرة اخرى، ورفض ما قد رسخ في ذهنه عن هذا الشخص عندما سمع خطابه وتمعنه قبل لحظات..((ردد مع نفسه.....نعم انه مجنون لقد صدق ابناء القرية))[43].

فمخلف النايف الواقف عند باب جوف القلعة احس بوجوده نمر الفلسطيني الذي كان قابعا داخل جوف القلعة ويتلو بخطابه الموجه لمقام آشور ،وهو مسلح حذر فراح يصيح على مخلف ويتوعده بالقتل اذا ما جمد في مكانه ومن دون اية حركة ،مبينا له انه يحمل سلاحا فتاكا لا يخطى هدفه، الامر الذي دفع مخلف النايف بالعودة الى مخاطبة عالمه الذاتي ورفض القناعة التي تولدت لديه اولا ،حين سمع خطابه الموجه لآشور ،والايمان والتسليم لما عرفه من اهل القرية من ان القلعة يسكنها مجنون ،وان الخطاب الذي سمعه هو لمجنون القلعة. يتكرر الصياح والمناداة بين الطرفين ويتحول ذلك الصياح الذي بدأه نمر ورد عليه مخلف الى شكل حوار مباشر بينهما. يطول هذا الشكل الحواري بينهما وتتكشف الحقيقة في النهاية من ان المنادي ليس مجنونا وانما هو نمر الفلسطيني المهاجر من فلسطين بسبب الاعتداء الصهيوني الغاشم الذي تعرض له ابناء وطنه وشعبه، فهو لجأ الى مقام الملك آشور ليحتمي به اولا ،وليستمد منه القوة والعزم ثانيا ، من اجل مقارعة الظلم والاستبداد.

بعدها يتعرف احدهما على الاخر ،همومه ،مشاكله ،سبب مجيئه لهذا المكان ،واذا بهما يوحد بينهما الهروب من الظلم والبطش كل حسب واقعه، ومن ثم ربط بينهما المكان بالمصير المشترك، فاتفقا في النهاية على العيش في القلعة سوية بمحبة واخوة صادقة ،فتأخذ رحلتهما معا مساحة من الاحداث الروائية وتستمر الى نهاية الحدث الروائي. وكذلك الحوار الداخلي لمخلف النايف بعد تعرفه على نمر الفلسطيني في القلعة والتفاهم الذي جرى بينهما ، والاتفاق الذي حصل بينهما على العيش سوية، ومن ثم النزول الى الغابة القريبة المحاذية للنهر للبحث عن صيد ما لسد رمق الجوع. فما ان وصلا النهر الذي يحاذي الغابة حتى اخذ النهر يثير حساسية مخلف ويحفز عواطفه ويثير اشجانه وهو يذكره بحادث حسنه، وكيف انها اقدمت على اغراق نفسها فيه عندما تم تزويجها بالإكراه من ابن المختار ،فراح مخلف يحاور نفسه حولها بحوار خفي بينه وبين ذاته يتساءل فيه عن (حسنه)، الواقع والمصير ،ذلك الحوار القائم على التخيل المكتنف للخرافة والاسطورة: ((يجلسان على الشاطئ كالأيتام .....(تذكر مخلف حكاية جدته عن السعالي النهرية عن افتراسها وسرقتها للأطفال الذين يقربون النهر ...أترى هل سرقت السعالي حسنه ؟.هل تزوجت احد ذكور السعالي ...؟،اهي سعيدة به ؟اتراني الان على الشاطئ.. كما ترى السعالي ...أتأتى في الليل للأكواخ كما تأتي السعالي ؟ ،أتكون عنزا وثعلبا كما تكون السعالي ؟.كان هذا ترديده مع نفسه..))[44].

فمخلف قبل لجوئه الى القلعة الجاثمة على شاطئ النهر كان قاصدا النهر ذاته لإغراق نفسه فيه ليلحق بركب حسنه. فهو قبل لجوئه لهذا المكان (القلعة) ،وحال وصوله الى البيت عائدا من الجبهة بإجازة من العسكرية ومعرفته بكل ما جرى لحسنه بغيابه ،ايقن حينها مع نفسه ان ما قامت به حسنه هو تضحية منها لاجله ،بعدما وقعت اسيرة التقاليد والاعراف البالية وتسليم الاهل لتسلط المختار وآراءه وقراراته، واوامر العشيرة ،بتزويجها من ابن المختار من دون أخذ موافقتها فلم تجد من سبيل الا اغراق نفسها. فمخلف الذي يعيش واقعا اليما ،وظرفا عصيبا في حاضره السردي كان سببه فقدان حسنه وما حدث لها ،فالنهر الذي بقربه وعلى الرغم من ان حسنه قصدته مرغمة فهو ينقي حسنه وحبها له من صنوف الزيف وادران التخلف التي تخيم على المجتمع ،وانها فارقت الحياة نقية صادقة بحبها ،الا ان النهر يبقى لدى مخلف شريكا في جريمة سلب حسنه منه. فمخلف وهو يتخطى على شاطئ النهر يخطف النهر بصره ويسلب ذاته فيثير حساسيته ،ويحفز مشاعره ووجدانه ،فتختلط في ذاكرته صور وتراكمات الماضي وما ورثه من واقعه البدائي من حكايات الجدات حول السعالي، وتخيل صورها وحالات تواجدها في النهر مع صورة حسنه /الروح/الجسد/ وحادث غرقها في النهر، فراحت مشاعره ونفسه المجروحة المؤمنة بالفطرة تحاور الوهم والخرافة، بأسئلة خفية في العالم الجواني الملتهب عن حسنه، وما هي علاقتها بالسعالي ،هل تزوجت منها ؟اهي سعيدة ام لا؟، واسئلة اخرى كثيرة تعكس رهافة الحس وعظمة العاطفة الوجدانية لمخلف المستندة الى طبيعة انسانية تخيم عليها البساطة والفطرة والإيمان المطلق بكل ما يتداوله ابناء القرية ويتوارثه جيلا بعد جيل....

الخاتمة:

بعد دراسة تقانات السرد الروائي في رواية صدى مكحول للكاتب ابراهيم حسن ناصر، يمكن ان نوجز اهم النتائج التي توصل اليها البحث ، وهي :-

ـ اعتمدت الرواية على تقانات السرد (السرد ، الوصف ، الحوار) في برمجة الاساليب السردية في رواية الأحداث.

ـ اعتمدت الرواية في سرد الأحداث على نمطي السرد ، الموضوعي ، والذاتي ، مع غلبة السرد الموضوعي ، اذ شغل مساحة واسعة من مساحة النص الروائي مقارنة بالسرد الذاتي.

ـ امتلك الراوي الموضوعي سلطة سردية في رصد ومتابعة كل ما تقوم به الشخصيات ، وقد اعتمد الراوي الموضوعي الرؤيتين الخارجية والداخلية في متابعة شخصياته، وفي الرؤية الخارجية يخبر عن افعالها وتحركاتها ، سماتها ومظاهرها الخارجية وكل ما يخدم الواقعة السردية ،اما في الرؤية الداخلية فينثني الى داخلها وينقل للقارئ هواجسها ، وافكارها ، هذياناتها وترددتها التي تفتنها من الداخل عندما يتطلب ذلك حركة النمو وتطورات الأحداث.

ـ في السرد الذاتي يشعر القارئ بقربه من الشخصية ، ولاسيما شخصية نمر الفلسطيني ، والذي واجه العداء والظلم الصهيوني في الواقع السردي بنفسه ، فهو يسرد احداثا وقعت له وواقعا عاشه بأم عينه ، اذ

تتجلى مكامن الذاتية في سرده من خلال الضمير (انا) وهو يحيل الى ذاته ، وهو يسرد ما عاشه وعاصره من احداث وويلات وقعت له.

ــ تبرز تقانة الوصف في الرواية في وصف الشخصيات ووصف المكان ، وفي وصف الشخصيات يقوم الوصف برسم هيئة الشخصية ويصور مظهرها الخارجي ويحدد ملامحها وافعالها من دون التوغل الى اعماقها الداخلية . اما في وصف المكان فيجسد الوصف معالم المكان ويحدد ابعاده ، ويشخص مظاهره ، وانواعه المختلفة ...المدينة ، القرية ، الريف ، الصحراء ، ساحة المعركة ، الخندق ، الملجأ ....الخ.

ــ الحوار في رواية صدى مكحول جاء بصيغ واشكال عديدة وهو قصير الى معتدل الطول ، وقد جاء بعضه خالصاً لا اثر للسرد فيه ، فيما جاء بعضه الآخر غير خالص وانما مصحوب ببعض الجمل السردية وهذا النوع كثيراً ما لجأ اليه الكاتب في رسم شخصياته .

الهوامش-

(1) قضايا الرواية الحديثة ، جان ريكاردو:9.

(2) لسان العرب لأبن منظور :مادة سرد.

(3) نظرية السرد الحديثة ، ولاس مارتن :106.

(4) شعرية السرد الروائي عند ادوارد الخراط ، يوسف شكير :62.

(5) نظرية الادب ،رينيه ويليك:292.

(6) نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانين الروس) :189.

(7) السرد في روايات محمد زفزاف ، محمد عزالدين التازي :26.

(8) صدى مكحول (رواية) ابراهيم حسن ناصر :63-64.

(9) نفسه:88-89.

(10) نظرية المنهج الشكلي :189.

(11) الصوت الاخر ، فاضل ثامر :182.

(12) مدخل لدراسة الرواية ، جيريمي هوثورن :60.

(13) صدى مكحول :36-37.

(14) نفسه:120-121.

(15) ضحك كالبكاء ، ادريس الناقوري :127.

(16) في نظرية الرواية ، عبد الملك مرتاض :285.

(17) السرد والوصف ، جيرار جنيت :52.

(18) نحو رواية جديدة ، الان روب جرييه:129.

(19) الالسنية والنقد الادبي ، موريس ابو ناضر:133.

(20) بناء الرواية ، سيزا قاسم:82.

(21) ينظر :السرد والوصف:53.

(22) البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، عبد الله ابراهيم :87.

(23) في النقد الادبي الحديث ، مجد محمد البرازي :149.

(24) صدى مكحول:26-27.

(25) نفسه :18.

(26) نفسه :80.

(27) ينظر :تحولات السرد ، ابراهيم السعافين :165.

(28) ينظر :البيئة في القصة : مقدمة نظرية ، وليد ابو بكر :63.

(29) المكان في رسالة الغفران عبد الوهاب زغدان :20.

(30) صدى مكحول:7.

(31) نفسه:49.

(32) نفسه:27.

(33) نفسه :84.

(34) معجم المصطلحات الادبية المعاصرة ، سعيد علوش :78.

(35) نفسه:79.

(36) نفسه: 78.

(37) المغامرة السردية ، سوسن هادي جعفر :50.

(38) صدى مكحول:110-111.

(39) نفسه:46-47.

(40) القصة السايكولوجية ، ليون ايدل :116.

(41) عالم الرواية ، رولان بورنوف ، وريال اوئيلة :163.

(42) صدى مكحول:60.

(43) نفسه:62.

(44) نفسه:124-

REFERENCES

Firstly: Books

1-Abu Nader, Maurice, Linguistics an Literary Criticism in Theory and Practice, Dar Al-Nahar, Beirut, 1979.

2-Qasim, Siza , Building the Novel (A comparative study in the Najeeb Mahfouz Trilogy) , Dar Al-Tanweer for printing and publishing , Beirut , 1st Edition , 1985.

3-Ibrahim , Abdullah , The Artistic construction of the war Novel (A study of the narrative and construction systems in the Contemporary Iraqi Novel), House of General Cultural Affairs , Baghdad , 1994.

4-Al- Saa'fin, Ibrahim , Narrative transformations (A study in the Arabic Novel) , Dar Al-Shorouk for Publishing and Distribution, Amman, Jordan, 1, 1994.

5-Izz al-Din al-Tazi , Muhammad, Nation in the Novels of Muhammed Zafzaf, House of General Cultural Affairs, Small Encyclopedia Series , Baghdad.

6-Hassan Nassir, Ibrahim, Sada Makhoul (A novel), Shehab Press, Erbil, 2014.

7-Thame, Fadhel, The Other Voice, The Dialogue Essence of Literary Discourse, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1st Edition, 1992.

8-Al-Naqouri, Idris, Laughing Like Crying, House of Public Cultural Affairs , Baghdad 1st Edition, 1987.

9-Burnouf , Roland and Oelet, Real, translated by Nihad Al-Takarli, Mohsen Al-Moussawi, The world of the Novel, House of General Cultural Affairs , Baghdad ,1st Edition 1991.

10-Muhammed Al- Barazi,Majid, In Modern Literary Criticism, Al-Risala Al-Hadith Library, Amman Jordan, 1986.

11-Murtadh, Abdul Malik. On the Theory of the Novel(A Research in the Narrative Techniques) Alam of Knowledge Series,240, Kuwait,1998.

12-Edel, Leon, The Psychological Story (A Study in the Relationship of the Story), translated by Mahmoud Al_Samra, National Library Publications, Beirut, 1959.

13-Richard, Jean, Issues of the Modern Novel, translated by :Sabah Al-Juhain, Ministry of Culture and National Guidance , Damascus, 1977.

14-Ibn Manzur, Lisan Al-Arab, Prepared and Complied by: Yousuf Al-Khayat, Dar Al-Lisan Al-Arab, Beirut.

15-Hawthorn, Jeremy, An Introdution to the Study of the Novel, translated by : Ghazi Darwish Attia, reviewed by: Salman Daoud Al-Wasiti, House of General Cultural Affairs , Baghdad ,1st Edition 1996.

16-Alloush, Said, A Dictionary of Contemporary Literary Terms, The Lebanese Book House, Beirut, 1985.

17-Hadi Jaa'far, Sawsan, Narrative adventure and the aesthetic of Story Formation, (artistic vision in Faraj Yassin's Story Blog), House of cultural and Information, Sharjah, 1st Edition, 2010.

18-Zaghan, Abdel Wahab , The Place in the message of Forgiveness, Dar Samed Publishing, Safax , 2nd Edition, 1985.

19-Grayer, Alan Rob, Towards a New Novel, translated by: Mustafa Ibrahim Dar Al-Maa'ref, Egypt.

20-Willick, Rene and Wrren, Austin, Literary Theory, translated by: Mohieddin Sobhi , revised by Hossam Al-Khatib, The Supreme Council for the Sponsorship of Arts, Literature and Social Sciences, Khaled Al-Tarabshi Press, 1972.

21-Martin, Wallace, Modern Narrative Theory, translated by Jassim Muhammed, the Supreme Council of Culture, Cairo, 1998.

22-Theory of Formalism(Texts of Russian Formalists) translated by Ibrahim Al-Khatib, Arab Research Foundation, Beirut, Print1, 1982.

Secondly: Periodicals .

-Genette, Gerard, Narration and Description , translated by : Muhannad Younes , Journal of Foreign Culture, Baghdad, 1992.

-Shakir, Youssef, The Poetics of Narrative according to Edward Al-Kharrat, Alam of thought, Kuwait, 2001.

-Abu Bakr, Walid, The Environment in the Story A Theoritical Introduction, Al-Aqlam magazine, Baghdad, p.7, 1989.